مزارع مسن يعيش آخر أيامه وحيدا بين ذكرياته الممتعة

«ضوء المساء الساطع».. رواية تحتفي بسيرة الحياة وسط الطبيعة

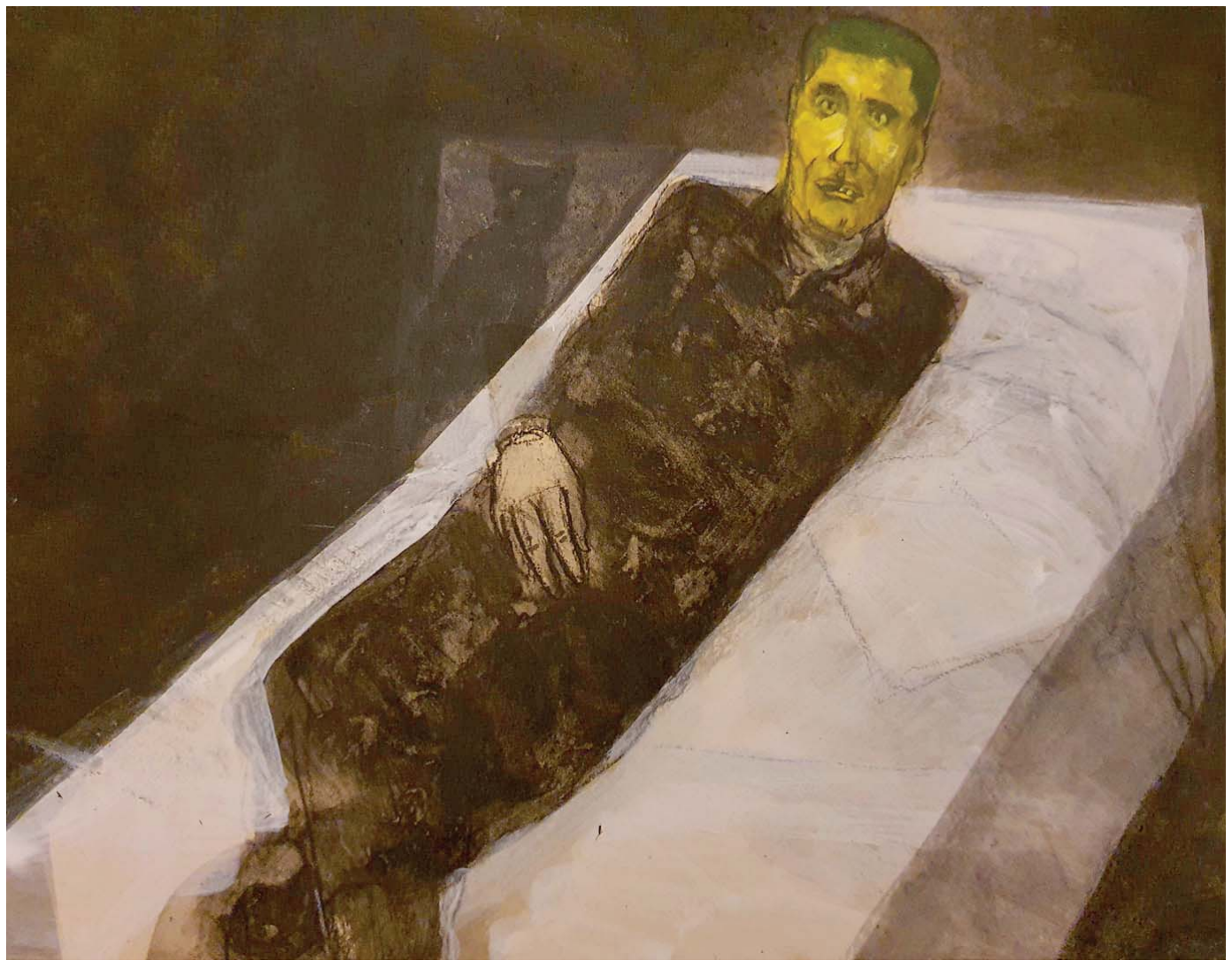

الحياة مع الذكريات (لوحة للفنان وليد نظامي)

أفاد الشعر الرواية بالكثير من لغته وبنيته القائمة على التكثيف والتقاطاته القائمة على عمق التأمل وصياغة الفكرة بشيء من العاطفية والتمهّل والعمق. ربما يعيب الكثيرون على من يكتبون الرواية ويغرقونها في الشعر، ما يشوهها ويجعلها معلقة خارج الشعر والسرد والبناء المحكم له، لكن شعراء وكتابا كثيرين وفقوا في تطويع الشعر للرواية وقدموا أعمالا أخاذة على غرار الشاعر البلجيكي كارل فان دي فوستاين.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

ما الذي يمكن أن يتذكره مزارع مسن يعيش الساعات الأخيرة لموته وحيدا على فراشه؟ الزوجة الراحلة، الأبناء الذين تركوه وحيدا، كفاحه في الحياة، همومه، نزواته، علاقاته النسائية، الأصدقاء، لحظات الفرح والحزن، إنه يكتب سيرة حياته بحلوها ومرها حيث تتداعى اللحظات الجديرة بالتذكر.

هذه الرواية "ضوء المساء الساطع" للشاعر والصحافي كارل فان دي فوستاين تحكي سيرة هذا المسن التي تمثل انعكاسا لمأساة الملايين من البشر الذين يخشون الوحدة والموت.

شاعرية الرواية التي ترجمها السيد طه وصدرت عن دار صفصافة، لم تمنع الكاتب من طرح رؤيته الفلسفية حول الحياة الحسية، حيث التفاصيل والأفكار العميقة والحكايات الممتعة لجماليات الحياة الإنسانية المعيشة في الطبيعة.

رواية شاعرية

بطل الرواية المزارع المسن ناند مربي المواشي الذي يتمدد محتضرا في سريره. وقد امتلأ هواء غرفته في الطابق العلوي من منزله برائحة الذكريات، يصحبنا إلى أجواء تحتفي بسيرة الحياة وسط الطبيعة التي نشأ بين أحضانها، وأطياف النساء اللاتي عرفهن ويتتابعن على ذاكرته واحدة تلو الأخرى، وتفاصيل يومه ما بين متابعة زراعاته والذهاب إلى السوق لبيع مواشيه وللعب البولينغ، علاقته بزوجته ولحظة موتها وإغلاقه لعينيها بإبهامه وسبابته ودورها وأبنائه الذين تركوه لوحدته.

إن دي فوستاين يحوّل عتمة الوحدة والموت إلى ضوء ساطع يكشف ثراء ما نعيشه حتى في أوقات الألم والحزن، مؤكدا عمق الوجود الإنساني وحضور الطبيعة ومفرداتها كفاعل أساسي في خلق هذا الوجود في أدق تفاصيله، حيث تتجلى رؤية الشاعر الجمالية وقدرتها على التقاط فعل الطبيعة والمهمش الذي سقط من الذاكرة وإعادة الخلق وبث الروح، حتى لا نكاد نرى ناند وحيدا ينتظر ملك الموت، بل إن كل ما يحيط به من عوالم مادية أو محسوسة يشاركه الإحساس بالوجود: الكرسي، تمثال العذراء، إناء الماء المقدس، الغبار، أرضية الغرفة الورسلين، صورة الابنة، برودة الهواء، العتمة، الضوء، حضور الزوجة واستلقائها بجانبه، لتتدفق الذكريات بحواراتها بأجوائها الدافئة ولحظاتها الغاضبة.

> دي فوستاين يحول عتمة الوحدة والموت إلى ضوء ساطع يكشف ثراء ما نعيشه حتى في أوقات الألم والحزن

يكتب دي فوستاين روايته بشاعرية إذ هو شاعر بالأساس، وعلى الرغم من أنه كتب عددا لا بأس به من المقالات الصحافية والنقدية والأعمال الأدبية القصيرة، بالإضافة إلى روايته الوحيدة التي كتبها بالتعاون مع هيرمن تيرلينك، إلا أن مجموعاته الشعرية الثلاثة عشر تمثل قمة إبداعه الأدبي.

رؤية للحياة

في الرواية الكثير من عوالم الكاتب نفسه، فقد وُلد فان دي فوستاين (1878 ـ 1929)، وهو شقيق الفنان التعبيري والرمزي الشهير غوستاف دي فوستاين، في مدينة جنت في الإقليم الفلمنكي البلجيكي. وعلى العكس من معاصريه، أمثال إميلي فيرهايرن (1855 – 1916)، وموريس مايترلينك (1862 – 1949)، الذين كتبوا بلغة الثقافة في ذلك العصر، اللغة الفرنسية، كتب هو بلغته الأم حيث درس فقه اللغة الجرمانية على الرغم من تواصله الأدبي مع الرمزية الفرنسية وعشقه الخاص لشعر بودلير. كما ارتبط ببيئته وقد انعكس ذلك على لغته الشعرية التي احتفت بمفردات الطبيعة.

قضى دي فوستاين خلال السنوات بين عامي 1900 و1906 بعض الوقت في معسكر فني في قرية سانت مارتنز لاتيم، ثم عمل كمراسل صحافي للعديد من الصحف الهولندية، حيث كان يتابع الأحداث السياسية والثقافية، وفي عام 1920 عُين أستاذا في جامعة جنت حيث درس تاريخ الأدب والفن. وقد حصل على جائزة August Beernaert للأكاديمية الملكية الفلمنكية للغة والأدب وجائزة الدولة الرئيسية للأدب الهولندي، وجائزة الدولة السنوية للأدب الهولندي، وحصل بعد وفاته على جائزة الدولة للأدب الفلمنكي.

يقول مترجمه للإنجليزية في تقديمه للرواية "كتب دي فوستاين الشعر متأثرا بشعراء الرمزية الفرنسية، أمثال بودلير ولافورج وموريـاس. وفي مجموعاته الشعرية الثلاث الأخيرة 'ربما كُتبوا كثلاثية'، حاول تجاوز الحواس من أجل الوصول بروحه إلى الحرية الصوفية".

ويضيف "مكن توضيح رؤيته عن الأغلال التي تكبل الكاتب، من خلال إحدى قصائد مجموعته الشعرية الأخيرة، وهي القصيدة التي يتكرر ظهورها في المراجع الأدبية المختلفة يقول: أنا البندقة – تعيش دودة ناعمة وشاحبة/ في حجرتي، تقضم تلك العمياء مني./ أنا التي تجعل بذوري من الظلمة عافية./ أنا الفراغ الذي لم يطلب شيئا أو يشتكي./ أهجرني، وبالألم المرح، أطعن نفسي./ أنا الوجبة الدائمة، التي تتغذى عليها/ الديدان الحمقاء في الحلقات المغلقة/ تلك الديدان الشاحبة، نافدة الصبر، ناكرة الجميل./ ولكن، لو لمسني إصبع طفل، فيمكنه أن يخمن قصتي:/ يمكنه أن يسمع فراغي، لأني أصدر صوتا، لأني أغني".

ويضيف عن الرواية "قد يبدو غريبا أن يكون العمل الذي اشتهر به دي فوستاين، وهو الذي كرس حياته كلها من أجل كتابة الشعر، هو هذه الحكاية عن مزارع مسن، تزوره مجموعة من الشخصيات قبل موته، تجسد حواسه الخمس، وتذكّره بالسعادة التي شعر بها أثناء حياته المتواضعة. يرى المؤرخ الأدبي جيرارد كنوفيلدر تلك الحكاية باعتبارها تعبيرا عن الحياة الحسية المغرقة في الماديات، وبذلك تعتبر الحكاية انعكاسا لرؤية دي فوستاين الإشكالية حول الحياة الحسية".

حكايات المافيا في صقلية كما يرويها ليوناردو شاشا

ميلانو (إيطاليا) – روايات للكاتب الإيطالي ليوناردو شاشا الثلاث "لكل ما له" و"حكاية بسيطة" و"نهار البومة"، تعتبر من أهم الأعمال الأدبية التي تناولت ظاهرة المافيا وعالم الجريمة الذي اقتبسته السينما وصار نمطا سينمائيا راسخا، لما يجسّده من إثارة وكشف لخفايا المجتمعات ورجال الأعمال وعالم السياسة وكيف تتغلغل الجريمة في أعماق الدول وتتحكم في دواليب الاقتصاد.

وتقدم منشورات المتوسط – إيطاليا هذه الروايات الثلاث، وهي الروايات الأولى التي تفتتح فيها الدار سلسلتها الجديدة المسماة "حكايات المافيا"، وهي سلسلة تقوم على ترجمة أعمال روائية وسيرية تناولت ظاهرة المافيا وحاولت فهمها عن قرب، لما لها من أثر كبير في الحياة الاجتماعية، ليس في إيطاليا وحسب، بل في دول كثيرة من العالم مثل الولايات المتحدة والصين واليابان وتركيا وغيرها من الأمم التي تأسست فيها مافيات على النمط الإيطالي، لكن بأسماء وبنيات مختلفة.

حين مات ليوناردو شاشا، قال المخرج السينمائي الشهير فرانشيسكو روسي الذي اقتبس من كتاب شاشا فيلمه "جثث ضخمة"، "بفقدان ليوناردو شاشا نخسر مرجعا هاما للغاية في مواجهة المافيا، وفي الكفاح ضد انتهاكات وفساد السلطة السياسية".

ناهيك عن كون شاشا واحدا من أهم الكتاب الإيطاليين، لكنه أيضا قد يكون أجرأ من كتب عن ممارسات المافيا وفضح أساليبها وعرى متانة وعمق تغلغلها في المجتمع الإيطالي.

أبدع شاشا سردا خاصا أصبح مدرسة ليس بعد وفاته وحسب، بل ظهرت وعرفت وهو لا يزال على قيد الحياة، ويمكن الاتفاق مع ما قاله الناقد والأكاديمي الإيطالي ألبيرتو أسور روزا عن أن شاشا شكل مرحلة في تاريخ الأدب الإيطالي، حيث قال "بعد اختفاء بازوليني وإيطالو كالفينو، فإن رحيل ليوناردو شاشا، يغلق مرحلة من مراحل الأدب الإيطالي في القرن العشرين".

شاشا من الكتاب القلائل الذين تمكنوا من كتابة الرواية البوليسية في إطار أدب رفيع المستوى. حيث تصبح الرواية الواحدة من رواياته تاريخا من التأمل لحياة مجتمع كامل، لمأساته وكيف ترك ليواجه ذاك المصير وحده.

في رواية "لكل ما له"، التي صدرت عام 1966، ويمكن عدها النتاج الأكثر اكتمالا وروعة للدمج المتقن بين الرواية البوليسية ورواية الاحتجاج المدني، والذي يميز المراحل الأولى لكاتابات شاشا.

بأسلوب صريح خال من المبالغات الأدبية، يحكي شاشا قصة الدم والفساد في بلدة في جزيرة صقلية الإيطالية. يسلط الضوء ببطء، ولكن، بلا تردد، بل بالكثير من الشجاعة، على شبكة من التواطؤ والجبن والانتهازية تريد الحفاظ على الوضع القائم في صقلية، ومن خلال تأمله المؤلم لشر لا علاج له، تُفاجئنا الرواية بالأدلة الحاسمة على أن صقلية تركت تماما لمصيرها مثل فريسة عزلاء إزاء سطوة منظمة إجرامية، تسعى فقط إلى إدامة نفسها. لا قانون هناك إلا قانون المافيا.

يقتل صيدلاني القرية في رحلة صيد، حيث دبرت الجريمة لتظهر كأنها جريمة عاطفية. لكن حقائق يعلمها صديق الصيدلاني الأقرب تدفعه إلى الشك بأمر آخر، فيتولى بنفسه مهمة التحقيق التي تكشف عن حقائق مثيرة. لتصبح الرواية وكأنها مروية صقلية الغامضة والقاسية. ومأساة محقق يقظ، كلما حقق في الأمر، شعر بنفسه غارقا أخلاقيا وحسيا في الالتباس والغموض.

أما رواية "حكاية بسيطة"، فبقدر بساطتها كما يبدو من عنوانها بقدر تعقيدها، وتدور أيضا في جزيرة صقلية، يمكن اعتبارها أحجية صقلية بخلفية من المافيا والمخدرات، ولكن شاشا يرويها دون أن يكون مضطرا لذكرها، وهنا تكمن براعته.

كل شيء يبدأ باتصال هاتفي بقسم الشرطة، ينقل رسالة غامضة، توحي بانتحار أحدهم، ثم، وكما لو أننا نشاهد فيديو سريعا، يرصد تفتح وردة جوري، تبدأ الأحداث بالتسارع والتوسع والتشابك، وإزاء هذه الكثافة سنكون، جميعا قراء وشخصيات الرواية، مدعوين للتحفز واليقظة تماما مثل ما يفعل عريف الدرك في بحثه عن الحقيقة طيلة الوقت.

الوقت الذي يتم اختزاله في هذا العمل الروائي إلى جزء من الثانية، وربما هنا تكمن خطورة المراهنة أمام من يريد أن يدرك على نحو دقيق الاحتمالات التي لا تزال قائمة أمام العدالة.

> ليوناردو شاشا كتب الرواية البوليسية ببراعة، حيث تصبح كل رواية منها تاريخا من التأمل لحياة مجتمع كامل

وتنطلق رواية "نهار البومة" من حادثة مقتل رجل بالرصاص فيما كان يركض للحاق بالحافلة في ساحة بلدة صقلية صغيرة. لن يشهد أحد ممن كان في الساحة على مقتله، وهذا ما سيشكل تحديا كبيرا للنقيب بيلودي، والذي سيحال له التحقيق في الجريمة. لكن، سرعان ما ستصطدم تحقيقات النقيب، الجديد في عمله، والذي يسعى إلى إثبات جدارته، بجدران هائلة من الصمت والمصالح الشخصية. يشك بيلودي في تورط المافيا، وتكبر شكوكه عندما تنعطف الأمور، وتتوالى الجرائم البشعة، ويكتشف أن تحقيقاته كلها تحت مراقبة مراقبين من حوله، وعن بعد أيضا. وكلهم يتشاركون شيئا واحدا فقط، وهو منع ظهور الحقيقة.

هذه الرواية عن المافيا هي أيضا عرض دقيق للطريقة التي تحافظ فيها منظمة المافيا على نفسها، وهي قصة مكتوبة ببراعة، وفعل استنكار شجاع.

المافيا ليست مجرد حكاية